

OPEN ACCESS

الاستعارة بين الدلالة والتداولية دراسة لسانية في الحديث النبوي

غصاب منصور الصقر

الحرس السلطاني العماني، الأوركسترا السيمفونية السلطانية العمانية
ghassab67@yahoo.com

ملخص

سعيًا في هذا البحث إلى دراسة الاستعارة دلاليًا وتداوليًا. وقد توصلنا في نهايته إلى أن الاستعارة أسهمت في إنتاج دلالة الحديث النبوي وتداولها، وتبيان أثرها الديني والنفسي من خلال إحداث انفعال شعوري عاطفي في نفس المتلقي، وأنها قد تجاوزت الرؤية التركيبية والدلالية إلى الرؤية التداولية، وانتقلت من الاعتماد على الألفاظ المفردة إلى الجملة فالخطاب؛ فأضحت نشاطًا لغويًا يستدعي حضور المتكلم والمخاطب والسياق، في عملية التواصل.

الكلمات المفتاحية: الاستعارة، الدلالة، التداولية، اللسانيات، الحديث النبوي

للاقتباس: الصقر م، «الاستعارة بين الدلالة والتداولية دراسة لسانية في الحديث النبوي»، مجلة أنساق، المجلد 3، العدد 1 و2، 2018-2019

© 2019، الصقر، الجهة المرخص لها: دار نشر جامعة قطر. تم نشر هذه المقالة البحثية بواسطة الوصول الحر وفقًا لشروط Creative Commons Attribution license CC BY 4.0. هذه الرخصة تتيح حرية إعادة التوزيع، التعديل، التغيير، والاشتقاق من العمل، سواء أكان ذلك لأغراض تجارية أو غير تجارية، طالما ينسب العمل الأصلي للمؤلفين.

The metaphor between Semantic and Pragmatic A Linguistic Study of the Prophet's Hadith

Ghassab Mansoor Al Saqr

Royal Guard of Oman - Royal Oman Symphony Orchestra

ghassab67@yahoo.com

Abstract

In this research, we endeavored to study the semantic and pragmatic value of the Prophet's Hadith. We concluded that the metaphor contributed to the production and pragmatic of the semantic values of the Hadith. The study also shows the religious and psychological impact of the metaphor on the receivers through invoking certain emotions and feelings within the receiver of the message. The use of metaphors actually transcended the syntactical and semantic visions to the pragmatic vision. It also moved from being dependent on the word to the sentence and the discourse. It becomes a linguistic activity, which requires the presence of the speaker, the addressee, and the context in the act of communication.

Keywords: Metaphor, Semantics, Pragmatics, Linguistics, Prophetic Hadith

للاقتباس: الصقر م، «الاستعارة بين الدلالة والتداولية دراسة لسانية في الحديث النبوي»، مجلة أنساق، المجلد 3، العدد 1 و2، 2018-2019

© 2019، الصقر، الجهة المرخص لها: دار نشر جامعة قطر. تم نشر هذه المقالة البحثية بواسطة الوصول الحر وفقاً لشروط Creative Commons Attribution license CC BY 4.0. هذه الرخصة تتيح حرية إعادة التوزيع، التعديل، التغيير، والاشتقاق من العمل، سواء أكان ذلك لأغراض تجارية أو غير تجارية، طالما ينسب العمل الأصلي للمؤلفين.

لقد اعتنى اللسانيون بدراسة الاستعارة عناية كبيرة؛ فعملوا على تأويلها وتوليد دلالاتها، وربطوها بالموسوعة، وبنوا أهميتها في الإقناع والتأثير، وأدركوا أهمية منظورها الحديث الذي فتح أفقاً أرحب لدراستها، والذي نقض الأفكار التقليدية، التي تعتمد على الألفاظ وحدها دون تجاوزها إلى الجملة والخطاب؛ فدرسوها بوصفها نشاطاً لغوياً يستدعي أطراف الخطاب جميعاً في عملية التواصل، ووضعوا لها شرطين مهمين لتحليلها.

سنُعنى -في هذا البحث- بدراسة الاستعارة في الحديث النبوي من الناحيتين الدلالية والتداولية، كونها تجسد الأبعاد الدلالية والتداولية للغة، وتوضح مفهومها، وسنعمل على تأويلها، وتوليد دلالاتها، وتبيان أثرها في الإقناع والتأثير، وتوضح مظهرين مهمين من مظاهر تداوليتها، هما: المقصدية، والمقبولية.

1- مفهوم الاستعارة

يقول ابن منظور: الاستعارة من العارية، وهي معروفة¹. وقال الزبيدي: «هم يتعرون من جيرانهم الأمتعة والثياب أي يستعرون»². ويقول ابن الأثير: «الأصل في الاستعارة المجازية مأخوذة من العارية الحقيقية التي هي ضرب من المعاملة، وهي أن يستعير بعض الناس من بعض شيئاً من الأشياء، ولا يقع ذلك إلا من شخصين بينهما سبب معرفة ما يقتضي استعارة أحدهما من الآخر شيئاً، وإذا لم يكن بينهما سبب معرفة بوجه من الوجوه، فلا يستعير أحدهما من الآخر شيئاً إذ لا يعرفه حتى يستعير منه»³.

والاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يُستعمل في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلاً غير لازم، فيكون هناك كالعارية. وتتفق حدود القدماء والمحدثين وهذا الحدّ إجمالاً⁴.

الاستعارة مصطلح يشير إلى عملية استبدال شيء بشيء آخر، الأمر الذي يؤدي إلى تغيير الدلالة الأصلية لذلك الشيء. وبعبارة أخرى، فإنَّ الاسم المستعار منه الذي ينقل إلى المستعار له لا يطابقه في دلالاته الحرفية، فعلى سبيل المثال، فإنَّ الحج يوظف للإشارة إلى الحياة، والنار الملتهبة للتعبير عن الحب، والحمل للدلالة على الطفل⁵.

1- جمال الدين بن مكرم بن منظور، لسان العرب (بيروت: دار صادر، 1414هـ)، مادة «عور».

2- محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس (بيروت: دار صادر، 1966)، مج 3، ص 435.

3- ضياء الدين ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (القاهرة: مطبعة نهضة مصر، 1959)، مج 2، ص 77.

4- Baalbaki, Ramzi, *Dictionary of Linguistic Term*, pp.306-307.

5- Martin, Bronwen and Ringham, F. *Dictionary of Semiotics*, p.48.

وينظر:

Metaphor: A form of conceptual projection involving mappings or correspondences holding between distinct conceptual domains. Evans, Vyvyan. *A Glossary of Linguistics*, p. 136.

2- دلالية الاستعارة

2-1- الاستعارة وتوليد الدلالة

شغل مفهوم التأويل حيزًا وافرًا من اهتمامات أمبرتو إيكو. إنَّ صفة الانفتاح والانغلاق التي تميّز بها الاستعارة ترتبط -بشكل أساسي- بالموسوعة (Encyclopedia)⁶ الثقافية، فالاستعارة المنفتحة تكتسب -دائمًا- خصائص موسوعية جديدة، وتوفر مجالًا تأويليًا أوسع؛ بفضل امتلاكها خصيصة توليد الدلالة وتقديم المعرفة؛ إذ تستدعي مقولة الانفتاح -بحسبه- تفاعلًا بين المتلقي والنص، الذي يبقى بدوره منفتحًا على تأويلات لا متناهية -وإن كان منغلقًا ومتهيًا- من قبل الذات القارئة، التي تولّد بدورها قراءات متنوعة للنص الواحد. فالتأويل اللامتناهي يجعل الأفكار كلها صحيحة وإن تناقضت فيما بينها، والإحالات كلها ممكنة وإن أنتجت دلالات عبثية. لقد أنشأ أمبرتو إيكو نموذجًا تحليليًا، يدعى أنموذجًا بحسب الحالات (Q) لتأويل الاستعارة، وذلك على النحو الآتي:

س / ←	ش	ف	م	غ
شكل س	من ينتج س	مم يصنع س	لأي شيء يصلح س ⁷	

نظرًا إلى قصور التحديد القاموسي في مواكبة التطور داخل اللغة، والاهتمام بها ينتجه السياق من معانٍ جديدة، يظل التأويل أحد الخيارات المتاحة لفك مغالق المعنى؛ لذا وضع أمبرتو إيكو خمس قواعد للتأويل السياقي-النصي للاستعارة، علمًا أنَّ عملية التأويل تعكس بصفة مقلوبة عملية الإنتاج، وهي على النحو الآتي⁸:

أولًا: مغنطة السمات المهمة، وتحديد أو تعقيم بقية السمات الأخرى، استنادًا إلى النص المساعد، أي: بناء رسم مكوني للوحدة الدلالية المتمثلة في المستعار منه.

ثانيًا: تعرّف سمة مغايرة -ضمن مستوى الموسوعة المناسبة- تكون متوفرة على سمة واحدة أو أكثر من السمات نفسها (أو العلامات الدلالية)، التي تمتلكها السمة الناقلة (المستعار منه)، وإظهار في الوقت نفسه سمات أخرى (جديرة بالاعتبار) (السمات القابلة للتمثيل بوساطة مؤولات مختلفة). وهذه السمة ستكون مرشحة للعب دور السمة الحاملة (المستعار له). وعندئذ، علينا القيام بمحاولات استكشافية في أثناء حصول منافسة

6- الموسوعة (Encyclopedia): المجموعة المسجلة لجميع التأويلات التي يمكن أن تنصورها موضوعيًا على أنّها مكتبة المكتبات؛ إذ تكون المكتبة أيضًا أرشيفًا لجميع المعلومات التي سُجّلت بطريقة من الطرائق. ولكن الموسوعة في الواقع غير قابلة للوصف في كليتها؛ إذ إن سلسلة التأويلات غير محددة مادّيًا وغير قابلة للتصنيف. والموسوعة بوصفها كلية التأويلات، تتضمن أيضًا تأويلات متناقضة. ثم إن النشاط النصي الذي نقوم به انطلاقًا من الموسوعة يغير مع مرور الزمن الموسوعة، حتى إن تصورًا شاملًا ومثاليًا عنها، إن كان ذلك ممكنًا، يكون غير مكتمل في اللحظة التي يتم فيها. والموسوعة بوصفها نسقًا موضوعيًا لتأويلاتها يتم امتلاكها على وجوه مختلفة من قبل مختلف مستعمليها. ويعرفها إيكو: بأنّها «فرضية ضابطة (-) ipote (si Regolativa) يقرر المتلقي على أساسها وعن تأويل نص ما أن يبني جزءًا من موسوعة تسمح له بأن يعطي إلى النص أو إلى المرسل جملة من الإمكانات الدلالية». ويتضح أن الموسوعة بوصفها فرضية ضابطة لا تتخذ شكل شجرة بل شكل جذمور؛ إذ لا توجد نقاط أو مواضع بل خطوط ربط فحسب.

أمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، ص 463.

7- المرجع نفسه، ص 288.

8- المرجع نفسه، ص 302-303.

بين أكثر من سمة للقيام بهذا الدور، اعتمادًا على إشارات في سياق النص.

ثالثًا: اختيار سمة واحدة أو أكثر من السمات المختلفة، وبناء عليها شجرة فورفورية (Tree Porphyry)⁹، بطريقة تجعل الأزواج المتضادة تلتقي في عقدة عليا.

رابعًا: إظهار علاقة جديدة بالاهتمام في أثناء تلاقي السمات المتنوعة لكل من المستعار له (الحامل) والمستعار منه (المحمول) في عقدة على درجة عالية جدًا من المقارنة في شجرة فورفورية.

خامسًا: تحديد علاقات دلالية جديدة؛ من أجل إثراء القوة الإدراكية للمجاز، استنادًا إلى الاستعارة المفترضة.

فهب أننا تناولنا عبارة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إِيَّاكُمْ وَالِدَيْنَ؛ فَإِنَّ أَوْلَهُ هَمٌّ، وَآخِرُهُ حَرْبٌ» في الحديث الآتي: «وَأَخْبَرَنَا أَبُو نَصْرِ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، أَنَّ أَبَا عَمْرٍو إِسْمَاعِيلَ بْنَ نُجَيْدِ السُّلَمِيِّ، ثنا مُحَمَّدُ بْنُ إِبرَاهِيمَ أَبُو شَنْجِيٍّ، ثنا ابنُ بَكَيْرٍ، ثنا مَالِكٌ، عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ دِلَافٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَجُلًا مِنْ جُهَيْنَةَ كَانَ يَشْتَرِي الرَّوَّاحِلَ فِيغَالِي بِهَا، ثُمَّ يُسْرِعُ السَّيْرَ فَيَسْبِقُ الْحَاجَّ، فَأَفْلَسَ، فَرَفَعَ أَمْرَهُ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ: «أَمَا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّ الْأَسْفِيعَ أُسْفِيعَ جُهَيْنَةَ رَضِيَ مِنْ دِينِهِ وَأَمَانَتِهِ أَنْ يُقَالَ: سَبَقَ الْحَاجَّ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ آذَانَ مُعْرَضًا، فَأَصْبَحَ وَقَدْ دِينَ بِهِ، فَمَنْ كَانَ لَهُ عَلَيْهِ دَيْنٌ فَلْيَأْتِنَا بِالْعَدَاةِ نَقْسِمَ مَالَهُ بَيْنَ غُرْمَائِهِ، وَإِيَّاكُمْ وَالِدَيْنَ؛ فَإِنَّ أَوْلَهُ هَمٌّ، وَآخِرُهُ حَرْبٌ»¹⁰ لنحللها مثالًا على توليد الدلالة بحسب أنموذج (Q) لدى إيكو، فإننا سنلاحظ أن السياق يشير إلى ملفوظ الحرب من وجهة نظر حقيقية. فالعبارة ملتبسة لا يمكن للدَّين أن يقوم بالحرب؛ إذًا، فهذا استعمال استعاري ما دام أن هذا الدَّين لا يمكنه أن يقوم بعملية الحرب؛ لذلك يجب علينا أن نجسد شيئًا له بعض سمات الدَّين، ولكنه سيفقد سمات أخرى، فإرضًا على الدَّين سمات لا يملكها؛ إذًا فما السمات التي سنبرزها، والتي سنطرحها؟ للإجابة عن هذا السؤال سنقوم بالإجراءات الآتية:

أولًا: مغنطة السمات المهمة للملفوظ الحرب، وتحديد السمات الأخرى. فالمستعار منه (المحمول) هو الحرب. ويمكن توضيحه بالرسم الآتي:

/الحرب/(س) ← الصراع الفيزيائي (ش) الثقافة (ف) عدا، اختلال، اضطراب، قلق (م) انتصار(غ)

ثانيًا: تعيين سمة مغايرة على مستوى الموسوعة المناسبة يمثل المستعار له، ويكمن في (الدَّين) الذي يتوفر

9- الشجرة الفورفورية (Tree Porphyry): شرح توضيحي على شكل شجرة استخدمه فورفوروس أحد شراح أرسطو؛ وضح فيه كيفية الانتقال من الجنس إلى النوع في نظرية أرسطو الاستعارية. وهي: «مشجر يمثل تبعية المفاهيم بعضها إلى بعض، ضمن ترانبة معروفة. وهو يقدم ارتباط المفاهيم -وبالتالي الكلمات- بعضها ببعض وفق التضمنين، بمعنى أن (أرز) تتضمنها (شجرة)، و(شجرة) يتضمنها (كائن)».

أورو سيلفان وآخرون، فلسفة اللغة (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2012)، ترجمة بسام بركة، المنظمة العربية للترجمة، ص 545.

10- أحمد بن الحسين البيهقي، السنن الكبرى (بيروت: دار الكتب العلمية، 2003)، مج 6، ص 81.

على واحدة أو أكثر من السمات المماثلة المتواجدة على مستوى سمات المستعار منه، والذي يكمن في (الحرب). وفي الوقت نفسه، ينبغي إظهار سمات أخرى مغايرة ذات أهمية. وتلعب السمات المذكورة دور الوحدة الدلالية المستعار لها (الدَّين). فالمستعار له (الحامل) هو الدَّين. ويمكن توضيحه بالرسم الآتي:

/الدَّين/ (س) ← الحدث المالي (ش) الثقافة (ف) ملاحظة، قلق، عدا (م) الظفر بالمال المدين (غ)
تضمن هذه الاستعارة عددًا كبيرًا من السمات المشتركة بين الطرفين؛ إذ نلاحظ اتفاقًا و اشتراكًا على مستوى المادة [+ثقافة]، والسبب [+عداء + اضطراب + اختلال + قلق + توتر + قتال]، والوظيفة [+الانتصار أو الظفر]. أما الاختلاف الوحيد، فيكمن في مستوى الشكل، أي: بين [الصراع الفيزيائي والحدث المالي].

ثالثًا: يمكن أن نقوم برسم تمثيل مكوني على مستوى مقوّم الاختلاف بين الطرفين، أي: بين الصراع الفيزيائي والحدث المالي؛ بحثًا عن نقطة الاشتراك على مستوى عقدة عليا من شجرة فورفورية على النحو الآتي:

/الصراع الفيزيائي/ (س) ← الحرب (ش) الثقافة (ف) اضطراب، قلق، عدا، قتال (م) انتصار (غ)
/الصراع المالي/ (س) ← الدَّين (ش) الثقافة (ف) ملاحظة، اضطراب، قلق، عدا، قتال (م) انتصار (غ)

نلاحظ الاتفاق مجددًا على مستوى سمات تكمن في المادة، والسبب، والوظيفة. ولو أننا وصفنا الصراع الفيزيائي، من حيث خصوصيته الشكلية، فإنه يمكننا تسميته حربًا، والعكس صحيح، أي: تسمية الحرب صراعًا فيزيائيًا، والعلاقة التي نجدها بين الصراع الفيزيائي والحرب هي من نوع المجاز المرسل. وكذا لو قمنا بوصف الحدث المالي من حيث خصوصيته الشكلية، فإننا يمكن أن نسميه دينًا، والعكس صحيح، أي: تسمية الدَّين حدثًا ماليًا؛ وبهذا تكون العلاقة بين الحدث المالي والدَّين نوعًا من المجاز المرسل.

رابعًا: يمكننا العثور على سمات كثيرة مشتركة بين الطرفين؛ فموطن الاشتراك بين المستعار منه (الحرب) والمستعار له (الدَّين) يكمن في اعتماد كلا الطرفين على مجموعة من الممارسات التي تعتمد في كل من نشاطي الدَّين والحرب، مثل: التخطيط للحرب، والتجهيز، والدفاع، والهجوم، والانسحاب، وتغيير الموقع، وإصابة الهدف، والاستسلام، والهزيمة، والنصر. ويمكن لنا تمثيلها في الجدول الآتي:

الحرب	الدَّين
+ تخطيط	+ تخطيط
+ تجهيز	+ تجهيز
+ دفاع	+ دفاع
+ هجوم	+ هجوم
+ انسحاب أو استسلام	+ انسحاب أو استسلام
+ إصابة الهدف	+ إصابة الهدف
+ تغيير الموقع	+ تغيير الموقع
+ انتصار أو هزيمة	+ انتصار أو هزيمة

خامسًا: يمكن لنا كذلك أن نجد عددًا من الأبعاد بين المستعار له (الدَّين) والمستعار منه (الحرب)، التي تقوم عليها بنية هذه الاستعارة. وتدعى بـ (أبعاد البنية الستة)¹¹، وهي: الأطراف، والمقاطع، والأطوار، والتعاقب الخطي، والترابط السببي، والغاية. ونوضحها في الجدول الآتي:

الدَّين	الحرب
+ الأطراف: خصمين	+ الأطراف: خصمين
+ المقاطع	+ المقاطع
+ الأطوار (الشروط التمهيديّة):	+ الأطوار (الشروط التمهيديّة):
+ بداية	+ بداية
+ وسط	+ وسط
+ نهاية	+ نهاية
+ التعاقب الخطي	+ التعاقب الخطي
+ الترابط السببي	+ الترابط السببي
+ الغاية	+ الغاية

هذه السمات المشتركة التي جمعت بين الطرفين جعلت الاستعارة أقرب إلى الحقيقة؛ كون مسافة التوتر بينهما قريبة جدًّا؛ وعليه فإنَّ ثمة انسجامًا وتوافقًا بين مجموع السمات المشتركة بين طرفي الاستعارة. وبهذا يكون عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قد حدَّرنَا من الدَّين؛ لأنَّ أوله همُّ وحزن، وآخره عداً ومخاصمة بين الدائن والمدين كالحرب، والنتيجة هلاك وسلب مال الدائن، وتركه لا شيء له.

2-2- النظرية الدلالية

انطلق ميشال لوغرين Michael Loughran [1937] في كتابه (الاستعارة والمجاز المرسل)¹² من نظرية جاكسون في الاستعارة التي نشرت في بحثه الموسوم بـ (حالتان للكلام، ونموذجان من الحبسة)¹³ في التفريق بين الاستعارة والمجاز المرسل؛ إذ يرى لوغرين أنَّ الاستعارة تقوم على علاقة التماثل، بينما

11- أبعاد البنية الستة: أبعاد تقوم عليها بنية أي حديث لطيف بين طرفين، وهي:

- الأطراف: نوع طبيعي معين، أي: شخصان. ويلعبان دور المتحدثين. ويحدد الحديث بما يفعله الطرفان، وهما يلعبان هذا الدور طوال الحديث.
- المقاطع: تتشكل من نوع طبيعي من الأنشطة. وهذا النوع هو الكلام. ويعد كل دور في الكلام مقطعًا من الحديث ككل. وعلى هذه المقاطع أن توضع مجتمعة بشكل معين يجعلها تشكل حديثًا منسجمًا.
- الأطوار: يتضمن الحديث نموذجًا مجموعة من الشروط التمهيديّة، وبعد ذلك يتم المرور إلى أطوار أخرى بما فيها، على الأقل، بداية وجزء مركزي ونهاية. وهكذا نجد عددًا من الأشياء التي تقال في بداية الحديث، مثل (السلام)، أو (كيف الحال؟)، وأشياء أخرى تحرك الحديث نحو الجزء المركزي، وأشياء أخرى تجعله ينتهي.
- التعاقب الخطي: تنتظم أدوار الكلام في التعاقب الخطي مع احترام قيد عام، وهو تناوب المتكلمين. ويسمح، أحيانًا، ببعض التداخلات، كما نجد بعض الانحرافات حين لا ينتظر متكلم معين دوره فيما يستمر الآخر في الكلام. ودون هاته القيود على التعاقب الخطي فإنَّه يكون لدينا حديث أحادي أو خليط من الألفاظ، وليس حديثًا.
- الترابط السببي: ينتظر أن تنتج نهاية الدور في الكلام عن بداية الدور الموالي.
- الغاية: قد تستخدم الأحاديث أي نوع من الغايات، إلا أن كل الأحاديث النموذجية تشترك في غاية الحفاظ على التفاعل الاجتماعي الرفيع عن طريق تعاون مقبول.
جورج لايكوف ومارك جونسون، الاستعارات التي نحيا بها. (الدار البيضاء: دار توبقال، 2009)، ترجمة: عبد المجيد جحفة، ط 2، ص 95-96.
12- ميشال لوغرين، الاستعارة والمجاز المرسل.
13- رومان جاكسون، ظاهران لغويان وحالتان من الحبسة (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1993).

المجاز المرسل ينهض على علاقة التجاور¹⁴.

يتم الانتقال في الاستعارة من معنى إلى آخر، بحذف بعض السمات الدلالية المتعارضة مع السياق؛ نظراً إلى وجود المنافرة الدلالية التي يشعر بها المتلقي نحوها. في حين يتم الانتقال في المجاز المرسل من طريق التصور الذهني للكلمة المجازية إلى ما يُراد التعبير عنه؛ إذ يحدث هذا الانتقال من طريق انزلاق المرجع¹⁵.

للاستعارة ثلاثة أنواع لدى لوغرين: استعارة فعلية، واسمية، واستعارة صفة. فالاستعارتان الفعلية والاسمية تحدثان نتيجة وجود تناقض دلالي بين الفعل وفاعله، أو بين الفعل ومفعوله؛ الأمر الذي يؤدي إلى حذف بعض السمات الدلالية للفاعل، أو المفعول التي تسببت في المنافرة الدلالية، وجعلت الكلام غير مفهوم¹⁶. أما استعارة الصفة، فإنها تنتج من إظهار سمة دلالية واحدة، وجعلها مدركة من لدن المتلقي؛ مما يؤدي إلى طرح السمات الدلالية الأخرى كلها للموصوف، التي تتعارض مع السياق¹⁷. فقول أبي قتادة: «فَضَمَّنِي ضَمَّةً، وَجَدْتُ مِنْهَا رِيحَ الْمَوْتِ» في الحديث الآتي: «حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ ابْنِ أَفْلَحَ، عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ، مَوْلَى أَبِي قَتَادَةَ، عَنْ أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ حُنَيْنٍ، فَلَمَّا التَقَيْنَا كَانَتْ لِلْمُسْلِمِينَ جَوْلَةٌ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَلَا رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَاسْتَدْرْتُ حَتَّى أَتَيْتُهُ مِنْ وَرَائِهِ حَتَّى ضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ عَلَى حَبْلِ عَاتِقِهِ، فَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَضَمَّنِي ضَمَّةً وَجَدْتُ مِنْهَا رِيحَ الْمَوْتِ، ثُمَّ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ...»¹⁸ - أدى إلى وجود تناقض دلالي جلي في الاستعارة الاسمية في التركيب الإضافي (ريح + الموت) على صعيد التواصل المنطقي؛ مما أدى إلى قطع الصلة بين عناصر الدلالة المتنافرة مع السياق. ولكي يعود هذا الملفوظ للاضطلاع بوظيفته التواصلية، يضطر متلقي الاستعارة إلى حذف بعض السمات الدلالية التي تتعارض مع السياق لـ (ريح) أو (الموت).

وبالمحصلة، فإن وظيفة الاستعارة لدى ميشال لوغرين ليست تزييناً وتجميلاً، أو سد فراغ لغوي، بل هي دينامية هدفها الإقناع والتأثير بوساطة إحداث انفعال شعوري عاطفي في نفسية المتلقي¹⁹.

لقد نقضت التداولية الأفكار التي أتت بها النظريات التركيبية والدلالية، وعملت على مقاربتها بوجهة جديدة تكاد تكون تختلف عنها، كما سيتضح لنا فيما يأتي.

14- لوغرين، الاستعارة والمجاز المرسل. مرجع سابق، ص 37.

15- المرجع نفسه، ص 40.

16- المرجع نفسه، ص 45.

17- المرجع نفسه، ص 46.

18- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وسننه وأيامه (بيروت: دار طوق النجاة، 1422هـ).

19- ميشال لوغرين، الاستعارة والمجاز المرسل. مرجع سابق، ص 145.

3- تداولية الاستعارة

تُعنى التداولية بدراسة الاستعارة بوصفها نشاطاً لغوياً يستدعي حضوراً متزامناً لأطراف الخطاب الكامنة في المرسل والمستقبل والمقام، في ضوء المعينات التواصلية الذاتية والسياقية والإحالية؛ ليتحقق التواصل بين البشر؛ وبهذا يكون البعد التداولي للاستعارة قد تجاوز النظرية الموضوعية الأرسطية، التي توقفت عند حدود الشجرة الفورفورية، ومفهوم القاموس الذي شكّل عائقاً في فهمها. وتجاوز كذلك حدود النظرية الدلالية التي لم تتعدّ في تفسيرها للعلامة الاستعارية بُعدها الدلالي - بوصفها علامة لسانية - دون الأخذ في الاعتبار النسق العام الذي يحكم العلامة الاستعارية، الخاضع بدوره لشروط تداولية. ومن المظاهر التداولية للاستعارة: المقصدية، والمقبولية.

3-1- مقصدية الاستعارة (Metaphor Intentionality)

تُعدّ الاستعارة إحدى المشكلات الرئيسة التي واجهت جون سيرل²⁰ John Searle [1932-] في أثناء تفسيره لكيفية انفصال معنى المتكلم، ومعنى الكلمة أو الجملة؛ إذ عمل على نقض تصور الباحثين الآخرين الذين يؤمنون بوجود نوعين من المعنى للجملة، أحدهما: حرفي (Literal Meaning). والآخر: استعاري (Metaphorical Meaning). فهو يرى أنّ الكلمات والجملة لها فقط المعاني التي لها، أي: المعنى الحرفي. أما المعنى الاستعاري، فهو دائماً معنى تُلْفِظُ المتكلم (-Speakers Utterance Meaning) وليس معنى الكلمة أو الجملة؛ إذ إنّ الطبيعة الاستعارية للملفوظ ما لا تعود إلى أسباب داخلية للبنية الموسوعية، بل تعود إلى مقصدية المؤلف واختياره²¹.

فعندما نتحدث عن المعنى الاستعاري لجملة ما، فإننا نتحدث عما يتلفظه المتكلم ليعني بطريقة تنفصل عما تعنيه الجملة فعلياً؛ ولذا فإننا نتحدث عن مقاصد ممكنة للمتكلم (Speakers Possible Intention)²². إنّ القول الاستعاري - عند سيرل - يتمثل في المعادلة الآتية: المتكلم يتلفظ بجملة حرفية بصورة (س) هي (ب)، ويريد استعاريّاً أنّ (س) هي (ر)²³. فحين ناقش قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْحُمَى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ، فَأَبْرُدُوهَا بِالمَاءِ» الوارد في الحديث الآتي: «حَدَّثَنَا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، قَالَا: حَدَّثَنَا يَحْيَى وَهُوَ ابْنُ سَعِيدٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ، أَخْبَرَنِي نَافِعٌ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الْحُمَى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ، فَأَبْرُدُوهَا بِالمَاءِ»²⁴ - نجد أنّها تكونت من ثلاثة

20- سيرل جون، «الاستعارة: صياغة المشكل»، مجلة فصول، ع 77، (2010)، ص 139-140.

21- إيكو أمبرتو، السيميائية وفلسفة اللغة (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2005)، ص 159.

22- سيرل جون، الاستعارة. مرجع سابق، ص 140.

23- عند تحليل الحمل (Metaphorical Predication)، فإننا نحتاج إلى أن نميز -وفق ذلك- بين ثلاثة عناصر:

أولاً: تعبير الموضوع (س) (The Subject Expression) (S) والشيء (The Object) (O) أو الأشياء المستخدمة التي تحيل عليه.

ثانياً: تعبير المحمول (ب) (The predicate Expression) (P) المتلفظ، والمعنى الحرفي لذلك التعبير مع شروط الصدق المقابلة له (-Its Corre-

sponding Truth Condition)، زائد الدلالة التعيينية (المرجعية) (The Denotation) إذا وجدت.

ثالثاً: معنى تلفظ المتكلم (س هي ر)، وشروط الصدق المحددة بذلك المعنى.

المرجع نفسه، ص 145-146.

24- مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم: المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (بيروت:

دار إحياء التراث العربي).

عناصر، أولاهما: تعبير الموضوع (س) (الحمى). وثانيهما: تعبير المحمول (ب) (فيح جهنم). وثالثها: معنى تلفظ المتكلم (س هي ر) (الحمى هي اشتعال حرارة الطبيعة في كونها مذيبة للبدن ومعذبة له، وهي تشبه في ذلك نار جهنم).

لقد بين سورل أن الاستعارات لا تشتغل بالضرورة وفق المشابهة (Similarly)، خلافاً لما يزعمه الفهم الشائع للظاهرة؛ إذ يرى أن هناك استعارات لا يكون تشابه بين طرفيها²⁵، وخير مثال على ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «الرَّكِبُ شَيْطَانٌ، وَالرَّاكِبَانِ شَيْطَانَانِ، وَالثَّلَاثَةُ رَكْبٌ» في الحديث الآتي: «حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ مُوسَى الْأَنْصَارِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا مَعْنٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا مَالِكٌ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَرْمَلَةَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الرَّكِبُ شَيْطَانٌ، وَالرَّاكِبَانِ شَيْطَانَانِ، وَالثَّلَاثَةُ رَكْبٌ»²⁶. فجملة (الراكب شيطان) استعارة لا تستجيب لمبدأ وجود طرفين تعقد بينهما مشابهة على مستوى المعنى الحرفي؛ لأن المحمول لا يبدل على شيء في الواقع (س) (شيطان). ولكن هذا المثال يمكن تأويله استعارياً (بحسب مقصدية المتكلم)، أي: أن الراكب - في المستوى الحرفي - ليس شيطاناً؛ لأن الشيطان من الجن ومخلوق من نار، ويتشكل في صور كثيرة، ويرانا ولا نراه، فالراكب (المسافر) لا يمكن أن يكون كذلك. أما على مستوى تلفظ المتكلم (المعنى الاستعاري)، فإننا يمكن أن نجد شبهاً بينهما، وهو أن الراكب يشبه الشيطان في انفراده عن الإنس، وتركه الأُنس بهم. وهذا دليل على كراهية الوحدة في السفر.

لا تنتمي المشابهة -لدى سيرل- إلى بنية الجملة الداخلية؛ لذلك فهي مجرد استراتيجية تداولية، يستخدمها المتلقي لتجاوز مرحلة خرق قواعد أفعال الكلام ومبادئ المحادثة، بغض النظر عن كون المشابهة موضوعية أو ذاتية، صادقة أو قائمة على تمثيلات الناس الخاطئة²⁷.

ثم إن الاستعارات لا تقوم أيضاً على التفاعل الدلالي مع كلمات أخرى لقول يشتغل على معنى حرفي²⁸. يرى سيرل أن نظريات التفاعل قد فشلت في تقدير قيمة التمييز بين معنى الجملة الذي ليس استعارياً على الإطلاق، ومعنى المتكلم (التلفظ) الاستعاري؛ إذ تحاول هذه النظريات أن توضع (Local To) المعنى الاستعاري في الجملة، أو في مجموعة ما من الترابطات مع الجملة (Set of Some Associations with the Sentence)²⁹. فالجملة الاستعارية السالفة الذكر -بحسبه- لا يوجد ثمة تفاعل بين البؤرة (شيطان) والإطار المحيط الحرفي (الراكب)، ذلك أن الراكب اسم فاعل لفعل (ركب)، أي: شخص مسافر لا يحمل أي دلالة، كما هو الحال بالنسبة إلى شيطان.

25- فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان (اللاذقية: دار الحوار، 2007)، ص 73.

26- محمد بن عيسى الترمذي، الجامع الكبير: سنن الترمذي (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998)، مج 3، ص 245.

27- عبد العزيز لحويديق، نظريات الاستعارة في البلاغة الغربية من أرسطو إلى لاكوف ومارك، ص 222.

28- بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان. مرجع سابق، ص 73.

29- سيرل جون، الاستعارة: صياغة المشكل. مرجع سابق، ص 147.

لقد ربط سيرل المعنيين بافتراض مفاده: إذا تحقق التطابق بين معنى الجملة ومعنى المتكلم، فإننا نكون إزاء المنطوق الحرفي، أما في حالة عدم التطابق بينهما، فنكون عندئذ أمام المنطوق الاستعاري الذي يقسمه إلى ثلاثة أنواع، نوجزها في الآتي ذكره³⁰:

أولاً: المنطوق الاستعاري البسيط: تقوم الاستعارة فيه على الاستبدال المحدد لكلمة بكلمة أخرى، أي: كلمة ملفوظة بكلمة مضمرة، وتمثل المقصود المجازي، أو قصد المتكلم.

ثانياً: المنطوق الاستعاري غير المحدد: وهو يتسم باتساع مجال المعاني، التي يحملها المنطوق الاستعاري؛ إذ لا يتحدد المضمرة هنا في كلمة واحدة، بل يتشعب بين دلالات مجازية متعددة، يحملها البعد المجازي الاستعاري.

ثالثاً: الاستعارة الميتة³¹: وفيها يهمل المعنى الأصلي للملفوظ، ليكون المعنى المجازي هو الملفوظ. فعلى الرغم من أن المقصدية تُعدُّ من أهم المظاهر التداولية التي تفسر الاشتغال الاستعاري، إلا أن الطرح الذي قدّمه سيرل في هذا المجال يبقى قاصراً، وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: إنَّ عدم قبول سيرل معنيين للجملة، واعتماده على المعنى الحرفي، بوصفه معنًى وحيداً لها، يعني أنه اعتمد على الكلمات المشكّلة للجملة، دون الاهتمام بالمعنى المقامي، الأمر الذي يؤدي إلى توقّف تعدد المعنى المفترض، داخل اللغة والخطاب؛ وعليه فإنَّ سيرل لم يلتفت إلى الطابع الابتكاري للغة، بل انحسر في المستوى العادي لها³².

ثانياً: يلغي سيرل دور المتلقي عندما يربط الاستعارة بالمتكلم في عملية التأويل، فالمعنى الذي يقصده المتكلم بالاستعارة لا يفهمه بالضرورة المتلقي، وقد يؤوِّله تأويلاً بعيداً عن مقصدية المتكلم في الاستعارة، فالتفاعل بين المؤوِّل والنص يولِّد التأويل الاستعاري، ونتيجة هذا التأويل تفرضه طبيعة النص، وطبيعة الإطار العام للمعارف الموسوعية، التي تحكمها ثقافة ما، وفي جميع الحالات، فإنَّ هذا التأويل لا علاقة له بمقصدية المتكلم؛ إذ يمكن للمؤوِّل أن ينظر إلى ملفوظ ما نظرة استعارية، شريطة أن تسعفه في ذلك موسوعة ثقافية³³.

ثالثاً: تتفق مقصدية المتكلم بالاستعارة ومتلقيها في حالة انتمائهما إلى البيئة الثقافية نفسها؛ لأنَّ المنطوق الاستعاري مرتبط بالموسوعة الثقافية للناطق، التي قد تختلف عن الموسوعة الثقافية للمتلقي؛ مما يجعل

30- عيد بليغ، «الرؤية التداولية للاستعارة»، مجلة علامات، ع 23، (2005).

31- الاستعارة الميتة: استعارة استُخدمت فترة طويلة من الزمن، فأصبحت شائعة؛ الأمر الذي أدى إلى عدم الشعور بوجودها، لأنَّها اختفت بسبب تكرارها. المرجع نفسه.

32- سعيد الحنصالي، الاستعارات والشعر العربي الحديث، ص 84-83.

33- أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2000)، ص 160.

الاستعارة لا تتعدى حدود الانتماء الثقافي للمتكلم. ومن الضروري تجاوز هذه المحدودية، فالمتلقي يعطي تأويلات لا يقصدها المتكلم، بل تقصدها اللغة نفسها؛ لأنَّ مقصدية اللغة أقوى من مقصدية المتكلم. وفي هذا المجال، يرى إيكو أنَّ الاستعارة ليست بالضرورة ظاهرة مقصودة، فيمكن لنا أن نتصور حاسوبًا ينتج عبارات عفوية من نحو (وسط درب حياتنا) ليقوم مؤوّل ما بمنحنا معنى استعاريًا. وعلى العكس من ذلك، إذا رغب الحاسوب -بمقصديّة ساذجة- في إنتاج استعارة ما، سيكون من الصعوبة بمكان منح هذه العبارة معنى استعاريًا مناسبًا في سياق معارفنا اللسانية³⁴.

رابعًا: تُعدُّ نظرة سيرل للاستعارة -في أكثر من وجهة- مجرد إعادة للنظريات نفسها التي صيغت في ظل الدلالة التكوينية، التي تعمل على تقسيم المدلول إلى وحداته الدلالية الصغرى، التي تقول: إنَّ طرفي الاستعارة يقومان على وحدات دلالية مشتركة بينهما. فالدلالي ينسب هذه السمات إلى النص، أما التداولي، فإنَّه يعمل على سلب النص من هذه السمات؛ ليسقطها على نوايا المتكلم، التي يستحضرها المتلقي من خلال الكلام الذي يتلقاه³⁵.

خامسًا: إهماله لخصيصة التفاعل بين البؤرة والإطار، التي تسهم في توليد المعاني الاستعارية الجديدة التي تكون وليدة ذاك التفاعل، والمستندة إلى السياق.

سادسًا: لم يتحرر سيرل كليًا من نظرية المشابهة؛ إذ ما زالت بعض المظاهر منها عالقة في تفكيره، وإن كان قد دحضها.

أما المظهر التداولي الثاني للاستعارة، فإنَّه يتمثل في المقبولية، التي سنوضحها في الآتي ذكره.

2-3- مقبولية الاستعارة (Metaphor Acceptability)

يُعدُّ إيكو أبرز من أسهم في تفسير الجانب التداولي للاستعارة؛ إذ يرى أنَّ مقبوليتها لا تقاس بمدى كذبها أو صدقها، وأنَّ النظر إليها من منظور معرفتها لا يعني أن ندرسها بعبارات شروط الصدق؛ ولهذا السبب، لن نهتم بالنقاشات التي تدور حول صدق الاستعارة، أي: هل الاستعارة تقول الصدق أم لا؟ وهل من الممكن استمداد استدلالات صادقة من قول استعاري؟ فمن البديهي، أنَّ مستعمل الاستعارة، هو حرفيًا يكذب، والجميع يعلم ذلك. ولكن الموضوع يرتبط بشيء أعم من ذلك يخص الوضع الصدقي والكيفي (للتخيل)، أي: كيف أننا نتظاهر بقول شيء ما، ونريد قول شيء صادق يتعدى نطاق الحقيقة الحرفية؟³⁶

34- المرجع السابق، ص 162.

35- لحويدق، نظريات الاستعارة في البلاغة الغربية. مرجع سابق، ص 222-223.

36- أومبيرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة. مرجع سابق، ص 237-238.

تحدد مقبولية الاستعارة بمدى خضوعها لقواعد التخاطب، التي وضعها بول غرايس Paul Grice [1913-1988]، وفقاً لمبدأ التعاون (Cooperative Principle)، والنشاط الاستعاري -بحسبه - يتمثل في اختراق القواعد الأربع الآتية³⁷:

أولاً: قاعدة (الكم) (Quantity): تتعلق هذه القاعدة بكمية المعلومات المزودة، ويندرج تحتها المبدأن الآتيان:

- أ- ليكن إسهامك في الخطاب إخبارياً كما تتطلب المحادثة.
- ب- لا يكن إسهامك في الخطاب أكثر مما يتطلب.

ثانياً: قاعدة (النوع) (Quality): تتمثل هذه القاعدة في مبدأ رئيس: ليكن إسهامك في الخطاب حقيقياً (صادقاً). ويتفرع إلى مبدئين فرعيين هما:

- أ- لا تقل ما تعتقد أنه خاطئ.
- ب- لا تقل ما ليس لديك عليه دليل كاف.

ثالثاً: قاعدة (الطريقة) (Manner): تتمثل هذه القاعدة في مبدأ: ليكن أسلوبك في الخطاب واضحاً. ويتمثل الوضوح في المبادئ الفرعية الآتية:

- أ- تجنب الغموض.
- ب- لا يكن لخطابك أكثر من معنى.
- ج- كن مختصراً.
- د- كن منظماً (مرتباً).

رابعاً: قاعدة (المناسبة) (Relation): تتجسد هذه القاعدة في مبدأ: ليكن إسهامك في الخطاب متعلقاً بموضوع المخاطبة (مناسبة المقال للمقام). واستعمال الاستعارة هو بمثابة خرق لقاعدة واحدة أو أكثر من هذه القواعد.

إنَّ الهدف من هذه القواعد التخاطبية إنّما هو الوصول إلى الغاية القصوى في الوضوح لكل مخاطبة، بحيث تكون المعاني المتبادلة بين المرسل والمستقبل معاني صريحة وحقيقية؛ إلا أنّ المتخاطبين قد يخالفان بعض هذه القواعد؛ فإذا حدثت هذه المخالفة، فإنّ الإفادة في المخاطبة تنتقل من ظاهرها الحقيقي إلى غير الحقيقي، فتكون المعاني عندئذ بين المتخاطبين ضمنية ومجازية³⁸، وهذا ما يتناسب مع الاستعارة.

لا تتوافق الاستعارة مع قاعدة (الكم) التي تجعل إسهام المتكلم في الحوار إسهاماً إخبارياً بالقدر

37- Grice, H. P., *Logic and Conversation*, pp. 45- 46.

38- عبد الرحمن طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1998)، ص 239.

الذي تمليه الحاجة في عملية التخاطب؛ لأن الاستعارة ترتبط بالإيجاز والاختصار، مما لا يتناسب مع مبدأ الحوار والمخاطبة، على نحو ما سنلاحظه في الحديث الآتي: «وَحَدَّثَنِي عَنْ مَالِكٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ لَهَا: يَا ابْنَ أُوْتَيْي إِتْمَا هِي عَشْرُ لِيَالٍ فَإِن تَخَلَّجَ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ فَدَعُهُ تَعْنِي أَكَلَ لَحْمِ الصَّيْدِ قَالَ مَالِكٌ: فِي الرَّجُلِ الْمُحْرِمِ يُصَادُ مِنْ أَجْلِهِ صَيْدٌ، فَيُصْنَعُ لَهُ ذَلِكَ الصَّيْدُ، فَيَأْكُلُ مِنْهُ. وَهُوَ يَعْلَمُ، أَنَّهُ مِنْ أَجْلِهِ صَيْدٌ: فَإِنَّ عَلَيْهِ جَزَاءَ ذَلِكَ الصَّيْدِ كُلِّهِ، وَسُئِلَ مَالِكٌ: عَنِ الرَّجُلِ يُضْطَرُّ إِلَى أَكْلِ الْمَيْتَةِ وَهُوَ مُحْرِمٌ. أَيَصِيدُ الصَّيْدَ فَيَأْكُلُهُ؟ أَمْ يَأْكُلُ الْمَيْتَةَ؟ فَقَالَ: بَلْ يَأْكُلُ الْمَيْتَةَ»³⁹. لقد حُرقَ مبدأ الكم في تعبير: «يُضْطَرُّ إِلَى الْمَيْتَةِ»، في الحديث السالف الذكر، من خلال حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه؛ للمبالغة في التحريم، والتقدير: (أكل الميتة). ومن هذا القبيل أيضًا: «وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ فِي خَلَاءٍ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»⁴⁰، أي: (فاضت الدموع من عينيه)، «وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»⁴¹، أي: (تحاببا في طلب رضا الله).

كما تنتهك الاستعارة كذلك قاعدة (النوع) أو (الكيف) التي تشترط الصدق في الحديث؛ لأن مستعملها يقدم معلومة ملتبسة يصعب تفسيرها، إذ لا يوجد هناك تطابق بين القول والقصد، إذ يقول المتكلم شيئاً ويخفي شيئاً آخر. يتجلى الخرق لهذه القاعدة من خلال قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «وَأَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَن عَاتِقِهِ»⁴². ففي هذا الحديث معنى استلزامي مضمرة، غير المعنى الحرفي المعلن، هو: (كثرة الأسفار)، أو (كثرة ضربه لنسائه).

أما قاعدة (الطريقة) أو (الأسلوب) التي تفترض الوضوح وعدم الازدواجية في حديث المتكلم، فإنها تتعارض مع التعبير الاستعاري الذي يتسم بغموض الدلالة وعدم وضوحها. ومن الشواهد على خرق هذا المبدأ، قول زيد بن ثابت رضي الله عنه: «هُوَ حَرْثُكَ إِنْ شِئْتَ سَفَيْتَهُ، وَإِنْ شِئْتَ أَعْطَشْتَهُ»، في الحديث الآتي: «عَنْ ضَمْرَةَ بِنْتِ سَعِيدِ الْمَازِنِيِّ، عَنِ الْحَجَّاجِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ غَزِيَّةَ، أَنَّهُ كَانَ جَالِسًا عِنْدَ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ فَجَاءَ ابْنُ فَهْدٍ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، إِنْ عِنْدِي جَوَارٍ لَيْسَ نِسَائِي السَّلَاتِي أَكِنَّ بِأَعْجَبَ إِلَيَّ مِنْهُنَّ، وَلَيْسَ كُلُّهُنَّ يُعْجِبُنِي أَنْ يَحْمِلَنَّ مِنِّي أَفَاعَزِلُ؟ فَقَالَ زَيْدٌ: أَفْتِيهِ يَا حَجَّاجُ قَالَ:

39- مالك بن أنس المدني، موطأ الإمام مالك (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1985). مج 2، ص 499.

40- ينظر الحديث الآتي: «أَخْبَرَنَا زَيْدُ بْنُ هَارُونَ، أَنَّنَا بِنْتُ نَضْرٍ، قَالَ: أَبَانَا عَبْدُ اللَّهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ فِي خَلَاءٍ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ كَانَ قَلْبُهُ مُعَلَّقًا فِي الْمَسْجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالَ إِلَى نَفْسِهَا فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ، فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِئَالَهُ مَا صَنَعَتْ بِبَيْتِهِ».

أحمد بن شعيب النسائي، المجتبى من السنن: السنن الصغرى (حلب: مكتبة المطبوعات الإسلامية، 1986)، مج 8، ص 222.

41- المرجع نفسه، مج 8، ص 222.

42- ينظر الحديث الآتي: «أَخْبَرَنَا زَيْدُ بْنُ هَارُونَ، أَنَّنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ أَنَّهَا حَدَّثَتْهُ -وَكَتَبَتْ مِنْهَا كِتَابًا- أَنَّهَا كَانَتْ تَحْتَ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ بَنِي حَزْرَمٍ فَطَلَّقَهَا ابْتِئَاءً، فَأَرْسَلَتْ إِلَى أَهْلِهَا تَبْتَغِي مِنْهُمْ النِّقْفَةَ فَقَالُوا: لَيْسَ لِكَ نِقْفَةٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: لَيْسَ لِكَ نِقْفَةٌ وَعَلَيْكَ الْعِدَّةُ، وَانْقَبِي إِلَى بَيْتِ أُمِّ شَرِيكٍ وَلَا تَقْوَيْنَا بِنَفْسِكَ، ثُمَّ قَالَ: إِنْ أُمُّ شَرِيكٍ امْرَأَةٌ يَدْخُلُ عَلَيْهَا إِخْوَانُهَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَلَكِنْ انْقَبِي إِلَى بَيْتِ ابْنِ أُمِّ مَكْنُومٍ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَعْمَى إِنْ وَصَعْتَ نَيْابِكَ لَمْ يَرِ شَيْئًا، وَلَا تَقْوَيْنَا بِنَفْسِكَ، فَانْطَلَقَتْ إِلَى بَيْتِ ابْنِ أُمِّ مَكْنُومٍ، فَلَمَّا حَلَّتْ، ذَكَرَتْ أَنَّ مَعَاوِيَةَ وَأَبَا جَهْمٍ خَطَبَاهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَّا مَعَاوِيَةُ فَرَجُلٌ لَا مَالَ لَهُ، وَأَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَن عَاتِقِهِ، فَأَيْنَ أَنْتُمْ مِنْ أَسَامَةَ؟ فَكَانَ أَهْلُهَا كَرَهُوا ذَلِكَ، فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَا أَكْبِحُ إِلَّا الَّذِي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَكَحَّتْ أَسَامَةَ».

عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، مسند الدارمي (بيروت: دار البشائر، 2013)، مج 1، ص 521-522.

فَقُلْتُ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ إِنَّمَا نَجِلسُ إِلَيْكَ نَتَعَلَّمُ مِنْكَ، قَالَ: أَفْتِهِ قَالَ: قُلْتُ: هُوَ حَرْثُكَ إِنْ شِئْتَ سَقَيْتَهُ وَإِنْ شِئْتَ أَعْطَشْتَهُ، قَالَ: وَكُنْتُ أَسْمَعُ ذَلِكَ مِنْ زَيْدٍ، فَقَالَ: صَدَقَ⁴³. إِنَّ الْمَقْصُودَ بِـ (الْحَرْثِ) هُنَا الْمَعَاشِرَةُ الزَّوْجِيَّةُ، وَلَكِنْ لُغَةُ الْحَدِيثِ عَدَلَتْ عَنِ ذَلِكَ إِلَى الْإِسْتِعَارَةِ؛ لِمَا فِي الْإِسْتِعَارَةِ مِنْ مَعْنَى اسْتِزَامِي هُوَ: (الْوَطء).

وتتعارض الاستعارة أيضاً مع قاعدة (المناسبة) أو (الملاءمة) التي تحصر التخاطب فيما هو مناسب للموضوع الذي يجمع المتكلم بالمتلقي، ومناسب لهدف الخطاب ومقامه؛ لأنَّ التعبير الاستعاري يهدف إلى الوصول إلى المعنى المجازي للجملته، وليس الحرفي.

يندرج تحت خرق هذه القاعدة تأكيد المدح بما يشبه الذم، ومن الأمثلة على ذلك حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: «أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ بَيِّدٌ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ»⁴⁴. لقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه بصفة حميدة بأنَّه أفصح العرب، ولكنه أتى بعدها بأداة استثناء، مما جعل متلقي الحديث يظن أنَّه صلى الله عليه وسلم سيذكر بعدها صفة غير حميدة، غير أنَّه صلى الله عليه وسلم لم يفعل ذلك، وأتى بدلاً عنها بصفة مدح ثانية، وهي أنَّه من قريش المعروفة بفصاحتها، وغرضه من هذا الخرق المبالغة في توكيد المدح الأول.

وتبعاً لذلك، فعندما يتكلم شخص مُحْتَرِّقاً هذه القواعد جميعها، ويفعل ذلك بطريقة تجعلنا لا نظنَّ أنه أخرق أو أحمق، فإننا نجد أنفسنا إزاء استلزام من الواضح أنَّه يريد أن يقصد شيئاً آخر⁴⁵.

أضف إلى قواعد غرايس الأربع في التخاطب بعض القوانين التداولية (قوانين اجتماعية - ثقافية)؛ لتنظّم قبول الاستعارة وقرار تأويلها، ولتصبح عملية التواصل بين المتخاطبين ناجحة. وهذه القوانين تحتاج إلى سنن لغوي وثقافي يحكم موضوع الحديث؛ لكي تُقبل الاستعارة ويسهل تفسيرها.

وخلاصة القول، فإنَّ المقاربة التداولية وضعت شرطين لتحليل الاستعارة: يتمثل الأول في المقصدية التي أتى بها سيرل، الذي يرى أن الاستعارة توجد في تلفظ المتكلم، وليس في الجملة، وتفسر بناءً على مقصدية. أما الشرط الثاني، فإنَّه يتحصل نتيجة خرق قاعدة أو أكثر من القواعد التخاطبية التي وضعها غرايس (الكم، النوع، الطريقة، المناسبة).

خاتمة

لقد خلصنا في نهاية هذا البحث إلى جملة من النتائج، على النحو الآتي:

43- البيهقي، السنن الكبرى. مرجع سابق، مج 7، ص 376.
44- عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها (بيروت: دار الكتب العلمية، 1998)، مج 1، ص 167.
45- أومبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة. مرجع سابق، ص 238.

- 1- أهمية المنظور الحديث للاستعارة الذي نقض الأفكار التقليدية، وفتح أفقاً أرحب لدراساتها.
- 2- ارتباط الاستعارة بالموسوعة ولّد فضاءات أوسع لتأويل دلالاتها، وتقديم المعرفة، وأكسبها خصائص موسوعية جديدة.
- 3- وظيفة الاستعارة بحسب النظرية الدلالية ليست تزييناً وتجميلاً، أو سد فراغ لغوي، بل هي دينامية هدفها الإقناع والتأثير، بوساطة إحداث انفعال شعوري عاطفي في نفس المتلقي.
- 4- تجاوز البعد التداولي للاستعارة النظرية الموضوعية الأرسطية التي توقفت عند حدود الشجرة الفورورية، ومفهوم القاموس الذي شكّل عائقاً في فهمها.
- 5- تجاوز النظرية التداولية الرؤية التركيبية والدلالية للاستعارة؛ لتقرر أنّها تلفظ (فعل كلامي غير مباشر)، يستدعي حضور المتكلم والمخاطب والسياق، في عملية التواصل؛ إذ وضعت شرطين لتحليلها، أولهما: المقصدية، التي ترى أنّ الاستعارة تتمثل في القصد الكامن في تلفظ المتكلم (سيرل). وثانيهما: المقبولية، التي ترى أنّ الاستعارة تحدث نتيجة خرق قاعدة أو أكثر من القواعد التخاطبية التي وضعها غرايس (الكم، والنوع، والطريقة، والمناسبة).
- 6- للاستعارة دور بارز على المستوى الدلالي في إنتاج دلالات جديدة متنوعة، فشكّلت رافداً من روافد الإيضاح والإبانة عن المعاني، من أجل فهم مقاصد الحديث النبوي. أما من الناحية التداولية، فإنّ هذه الاستعارة استطاعت أن تنقل المعاني والدلالات في أثناء عملية التواصل الديني؛ من خلال ترجمة ما يدور في خلجات نفوس المتلقين الداخلية، فأثرت في سلوكهم تأثيراً كبيراً، فنبّهت عقولهم، وهدت نفوسهم.

المراجع

- ابن الأثير، ضياء الدين. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ط1، القاهرة: مطبعة نهضة مصر، 1959.
- ابن منظور، جمال الدين بن مكرم. لسان العرب. بيروت: دار صادر، 1414هـ.
- البخاري، محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وسننه وأيامه. تحقيق محمد زهير الناصر، بيروت: دار طوق النجاة، 1422هـ.
- أورو، سيلفان وآخرون. فلسفة اللغة. ترجمة: بسام بركة، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، 2012.
- إيكو، أمبرتو. السيميائية وفلسفة اللغة. ترجمة: أحمد الأصمعي، ط1، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2005.
- إيكو، أمبرتو. التأويل بين السيميائيات والتفكيكية. ترجمة وتقديم: سعيد بنكراد، ط1، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2000.
- بلانشيه، فيليب. التداولية من أوستن إلى غوفمان. ترجمة: صابر الحباشة، اللاذقية: دار الحوار، 2007.

- بليغ، عيد. «الرؤية التداولية للاستعارة»، مجلة علامات، ع 23، (2005).
- البيهقي، أحمد بن الحسين. السنن الكبرى. بيروت: دار الكتب العلمية، 2003.
- الترمذي، محمد بن عيسى. الجامع الكبير: سنن الترمذي. تحقيق: بشار معروف، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998.
- جاكسون، رومان. ظاهرتان لغويتان وحالتان من الحبسة. ترجمة: فاطمة الطبال بركة، ضمن كتاب النظرية الألسنية عند رومان جاكسون: دراسة ونصوص، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1993.
- جون، سيرل. «الاستعارة: صياغة المشكل»، مجلة فصول، ع 77، (2010). ترجمة طارق النعمان، مصر.
- الحنصالي، سعيد. الاستعارات والشعر العربي الحديث. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 2008.
- الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن. مسند الدارمي. تحقيق: نبيل هاشم الغمري، بيروت: دار البشائر، 2013.
- الزبيدي، محمد مرتضى. تاج العروس. بيروت: دار صادر، 1966.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. المزهري في علوم اللغة وأنواعها. تحقيق: فؤاد علي منصور، بيروت: دار الكتب العلمية، 1998.
- الصمعي، أحمد. السيميائية وفلسفة اللغة. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2005.
- عبد الرحمن، طه. اللسان والميزان أو التكوثر العقلي. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1998.
- لايكوف، جورج وجونسون، مارك. الاستعارات التي نحيا بها. ترجمة: عبد المجيد جحفة، ط2، الدار البيضاء: دار توبقال، 2009.
- لحويديق، عبد العزيز. نظريات الاستعارة في البلاغة الغربية من أرسطو إلى لايكوف ومارك لوغرين، ميشال. الاستعارة والمجاز المرسل.
- المدني، مالك بن أنس. موطأ الإمام مالك. صحّحه ورقّمه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1985.
- النسائي، أحمد بن شعيب. المجتبى من السنن، السنن الصغرى. حلب: مكتبة المطبوعات الإسلامية، 1986.
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم: المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- Baalbaki, Ramzi. *Dictionary of Linguistic Term*, Lebanon: Dar el-ilm lilmalayin, 1990.
- Evans, Vyvyan. *A Glossary of Linguistics*, Edinburgh: Edinburgh University Press, 2007.

- Grice, H. P. *Logic and Conversation, in Syntax and Semantics*, by Peter Cole and Jerry L. Morgan, New York: Academic Press, 1975.
- Martin, Bronwen and Ringham, F. *Dictionary of Semiotics*, casell: Wellington House, 125 Strand, London: WC2R OBB 370 Lexington Avenue, New York: NY 10017-6550, 2000.